الرؤى الأولى..

الخال...

هشام عيد

"وخلف أستار الثقة...عبثت الفواحش"

هشام عيد

obeikan.com

الخال

الدفء والغرابة ونظرة العين الغائبة، ذكرى هائمة لرجل سمين، ضخم الرأس غامق البشرة، على وجهه تجاويف صنعتها الصحاري ولفح الشمس، جالس على مقعد كبير، خفي عن مجال الرؤية، خالعًا كل ملابسه إلا ما يستر عورته. يتربص بلحظة غافلة وسكون.

يدعوهما، يتأملهما قليلًا ثم يسحبهما، واحدًا تلو الآخر، إلى دائرة الوَجد، يضمهما إلى صدره في حنان غريب مُلغز، عيناهما حائرتان، أنفاسه خانقة، شوك ذقنه مؤلم، عبث كفيه غامض، لا مفر ولا خيار.

يوقفهما أمامه كالمنوَّمَين، يسحب أكف الطفلين تباعًا ويدسهما تحت خصيتيه، تغيب عيناه في لحن برِّيٍّ لا يسمعه سواه، الدفء والغموض والسخونة، طاعة حائرة، لا يبتدران حركةً بغير إذنٍ منه، ينتشي، يدفعهما نحوه، يزوم كالمحموم، يشتد الحضن وتعتصرهما الضمة ويذهب بهما بعيدًا بعيدًا، إلى حافة الاختناق ثم يرسلهما مرهَقًا.

صمت وفراغ، سكون كالعدم، ثلاثتهم ملقون كأجساد تخلت عن أرواحها أو حقت عليها اللعنة، يتمنيان أن يطرق أحدهم الباب أو يظهر شخص ولو عفوًا ليمنحهما التفسير.

لكنه يفيق، ينظر إليهما بعينين حانيتين، متعته بعد ذلك أن يراهما عاريين، يبادل بنفسه وضع أيديهما، كلٌ على جسد الآخر، بهدوء، سقف الحجرة أسود والباب مغلق بإحكام والكل بعيد، ليس في الوجود سوى الخال، وهروب العالم وتجاهل السماء، لا يدركان أحق ذلك أم ضلال؟ أيغضبان ويهربان أم يتيهان في غِيِّه السادر؟ كل ما يعرفانه أن شيئًا مقززًا غامضًا يحدث.

يتبادلان النظر، ربما مرات محدودة في نَزع الصبا؛ ذلك بأن عيونهما بعد ذلك طوال عمرهما أدمنت الهروب، لم يدريا أيحكيان للأم أم يستديما رضاها بترضية الشقيق، يطويهما الليل، ولا يعبأ بهما السحاب، ينظران إلى سقف الحجرة الأسود كالسُّخام، ويديمان النظر منتظرين بطش السماء، لكن الليل يمضي ويستيقظ النهار، ويطوي الاعتياد كل شيء، وتمضي الحياة كما هي، الخال والأم والأب في نعيم، فماذا في الأمر إذًا؟

أشاعوا أنه كان زوجًا لجنية اسمها كهرمانة، سكنته حين كان عامل بناء في صحاري ليبيا، كان قويًّا كالبغل، يثني أسياخ الحديد بيديه العاريتين، وتضاجعه العفريتة ليلًا فوق رمال الصحراء الدافئة، ويأكل الثعابين ويصطاد الثعالب والعقارب، في هالة من التقديس والشعور بالإكبار لهذا الذي تلبسه الجن، وحَرَّمت عليه زوجة من الإنس، كانت طاعته كطاعة الرب نفسه.

" صباح الخير يا ربنا، عامل إيه؟ حبيبي يا رب خليك معانا النهاردة".

كانا يسمعان حديثه مع الله بعد طلوع الشمس، لا بدَّ أنه يعرف الله، وأن الله يعرفه شخصيًّا، تخفت في باطن نفسيهما الذكرى، أورثتهما عشق الخروج عن المألوف، كلما كبرا أدركا فصلًا جديدًا من الحكاية، الغيظ والندم، منبوذان في كل الشرائع، ملعونان أينما ثُقفوا، شيء مابينهما سقط، لم يضع أحدهما عينه في عين الآخر أبدًا، دائمًا في فرار، ألم يكن الرب موجودًا حين هتكنا الخال؟ "

كان ضخمًا وغامضًا، كائن بلا تفسير كالليل والضباب، يُصلي الفجر في المسجد ويذهب إلى الكنيسة أيام الآحاد، يتبتل بآيات من القران والصليب في يديه، شَرِهٌ في طعامه وشرابه، يصوم في رمضان ثم تنتابه الرغبة فجأة في شرب الخمر جهرًا أمام الصائمين في الشارع، يسير في الليل حيث تأخذه قدماه، قد يغيب ليلة أو ليلتين، ثم يعود فينام ليلة أخرى، لايسألونه أين كان وماذا حدث، يملؤهما الرعب حين يسطو صوته في الليل الحالك وهو يئن وينثر كلامًا شهوانيًّا ومحمومًا، ثم ينتفض ويتعرى تمامًا ويتعرق، ثم يصرخ لاعنًا كهرمانة، ويتلوى متألمًا ويرفس بكلتا قدميه يرجوها: "ارحميني بقى يا كافرة، كفاية أنا تعبت، مش قادر مش قادر".

في الليل تدور الجوزة بينه وبين الأب وجارهم فرج الفوال، الطفلان جالسان، ترص الفتاة الحجارة بالمعسل، ويقطع الفتى الحشيش بأسنانه، ويرصه قطعًا صغيرة فوق الطبلية، يختم كل حجر معسل بقطعة من حشيش فترسو حولها النيران، عشق منذ طفولته مذاق الحشيش، وتفنن في معرفة أصوله، وفي زاوية غير بعيدة تجلس الأم، متكئة في جلباب وردي تصارع ضحتكها ألم الحمل، وظلت كذلك نظرة مُتهتكة مُتبادلة بينها وبين فرج الفوال، تنتظر الغافل بإرادته حتى يغفو، عالقة في جدران الحجرة.

غالبًا تنتهي هذه الجلسة بأن يحمحم الخال ويدمدم ويعوي، ثم يرجف رجفة متقطعة، ليست كأي رجفة، يتحرك حينها كبندول ساعة، يرتفع سواد عينيه وينتشر فيهما البياض، ويُزبد فمه، ثم يسقط على الأرض، فيشتد الغضب حتى لا يقدر عليه أحد، ثم يلتف حوله الجميع فيسرد طلبات الجنية بصوت رفيع مثل أسلاك النحاس الأصفر: "هاتولي اتنين كيلو كباب وكفته وإزازة بيرة مشبرة".

يتكفل بكل ذلك فرج الفوال، وفي انتظار الوليمة يتنبأ لكل منهم بصوته الغريب المختلف بما ينتظره في قادم الأيام، كلما أفحش القول في تنبؤاته كلما زاد مرحهم وصخبهم:

"هتموت محروق يا فرج يا فوال".

" إيه بقى الكلام ده؟ طب خلاص مفيش كفتة".

" وإنتِ هتخلفي واد ولازم تسميه مايكل".

" مايكل؟ بس ده اسم مسيحي يا ست كهرمانة".

يزأر وينتفض فتستأنف الأم التي كانت حاملًا بالفعل في شهرها الأخير:

"خلاص خلاص مايكل".

تأتي الكفتة فتظهر أذكى حالاته، في منطقة وسطى دقيقة الميزان بين الوعي والتلبس، حيث لا بدَّ أن يفيق ليأكل، وأن يظل ملبوسًا لئلا يشاركه الطعام أحد، يسيل ريق العيال حوله، لا يعبأ بهم، ينهش الكباب كالأسد، يضحكون ويسعلون إلى حد الدمع، بينما شفاه الطفل والطفلة تتلمظان، منتظرة بقايا اللحم وما يتساقط من عظم.

يخرج الخال المتخم بالكباب وبالحشيش ليشم الهواء ساعة أو ساعتين، يدلف الأب ضائعًا مسطولًا تحت البطانية، مُسددًا بتغافُلِه ثمن العشاء والمزاج والكباب، وتسيير الحياة بشكل عام، يغدق فرج الفوال على الطفلين مالًا ليخرجا في فسحة، يبهجهم سخاؤه، يطيرون للخارج لا يعبأون بالظلام، يخلو المكان للأم وفرج الفوال، بجوارهما الأب يغط في مسرة السُطل، يُغطيان وجهه بغطائه.

في إحدى الليالي، عاد الخال عارٍ تمامًا، مُتلبسًا بالصمت، تسيل الدماء من رأسه وجسده، على ظهره خطوط طويلة من الدماء كالسُّجح، اتجه إلى الركن الذي ينام فيه وأخذ يبكي ويهذي، كان واضحًا أنه عُذِّب وجُلِد وسُحِل، زحف وتعرض للمطاردة والقذف بالطوب والزجاج، جلدته الشياطين أم أذرت به غلمان الطرق؟ لماذا لم تحْمِه كهرمانة؟

أسعد الموقف على صعوبته الطفلين، أضحكهما شقاؤه ورؤية مؤخرته الضخمة العارية، سقط من سطوة أسطورته، زجَرَتهما الأم بعنف وهي تكبس مواضع الدم بالبن، وقف صامتًا بين يديها كالطفل، عاريًا وصاغرًا، آخر ما سمعوه كان بكاؤه الهائم في الليل، بكاءً ممزوجًا بالعتاب والضباب والألم، ثم مات قبل أن يطلع الصباح.

نصت بحمد الله

هشام عيد

تخـــرج في كليـــة الآداب قـــسم فلـسفةعام ١٩٩١، ليعمـل حلاقًـا في صالون أبيه.

وبجانب عشقه منذ صباه للقراءة، اكتـسب نوعًـا أشـد تـأثيرًا في كتاباتـه، حيـث خـالط النـاس والحيـاة، ألهمتـه الحياة الحقيقية النبض في مؤلفاته، عمل أيضًا مُدرسًا ومُترجمًا.

من صالون الحلاقة راسل العديد من المجلات الثقافية في مصر، نُشِرت له مقالات متعددة في النقد، وتُرجمت إحدى قصصه إلى الهندية قبل أن ينشر باللغة العربية.

بدأ النشر مُتأخرًا جدًّا بعد أن تخطى السادسة والأربعين.

نشر مجموعة "أوراق حلاق" على نفقته الشخصية، ثم نشرها من خلال دار نشر، ثم أتبعها برواية: "حارة سر الدين الفلواتي".

من كلماته: " عندما تكتب كتابك الأول فأنت تراهن النفس أنك كاتبٌ، لكنك كلما كتبت كلما صدَّقت نفسك وأذدهر التحدي وظهر إبداعك الحقيقي، حينها تحصد نتيجة الرهان".

obeikan.com

ورسالته دائمًا: "دائمًا أنه يشير إلى القهر والقبح، يريد أن يُعلِّم الناس أن القبح والقهر ليسا حادثة في جريدة أو قصة نسمعها في تلفاز، بل هو بيننا، شديد القرب، مستخفٍ حول طبقات من المألوف".

" لست أفهم معاني الواقعية السحرية والحداثة وما بعدها وتفكيك النصوص، كل هذه المفاهيم الكبيرة تُربكني عن الكتابة، الواقعية عندي أن أتخذ هيئة الأشخاص، وربما أسماءهم، ثم أضعهم حيث أشاء من الظروف، مُلتبسين بصفات أخرى، ألقيهم في معترك الحياة، أُميتهم وأُحييهم، أسبغ عليهم الفضائل أو ألطخهم بالقاذورات، أمنحهم واقعًا آخر من خلق خيالي".

الجدير بالذكر أن النص التالي هو جزء من روايتي "حارة سر الدين الفلواتي"، وهي الرواية الفائزة بجائزة نجيب الثقافية، والتي طُبع منها حتى الآن طبعتان منذ صدرت للمرة الأولى في عام ٢٠١٦.

للتواصل معي على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك"

https://www.facebook.com/hishameid20

obeikan.com